أولو الألباب في القرآن الكريم

عبد السلام النجدي

مدرس مساعد بقسم التفسير

قال الله تعالى : (إنما يتذكر أولو الألباب)

وقفت طويلا عند هذا الجزء من الآية التاسعة عشرة من سورة الرعد المكية فتفكرت في أولئكم الأقوام الذين خصهم الله تعالى بالتذكر وأفردهم بالاعتبار ثم بعد ذلك شرفهم بأن جعلهم أولى الألباب وهي العقول فقلب كل شيء هو جوهره . ولاشك أن أفضل ما في الإنسان عقله الذي ينسجم مع الوحي الإلهي . ومن ثم فقد قال صلى الله عليه وسلم في الكافر (وقد قيل : ما أعقل فلاناً الكافر ! فقال : مه . إن الكافر لا عقل له) فهمة العقل التمييز بين النافع والضار في الحال والمآل : وبه فضله الله تعالى وكرمه عن بقية الحيوانات التي تزيد عنه قوة وضخامه . لكنها محكومة مذللة لهذا الإنسان الذي تميز بهذه القوة المفكرة .

تأملت تلك الآية الكريمة فرجعت قليلا وراءها لتعرف موقعها في النظم الكريم فإذا ما قبلها من آيات كان يتحدث عن استحقاق الله سبحانه وحده بالعبادة وتفرده بالسجود لله وذلك قوله تعالى (ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها) ثم بعد ذلك يسوق الحق جل وعلا الآيات الدالة على وحدانيته وربوبيته للسموات والأرض ومن فيهن وبين أن الناس مع هذا البيان الذي لا بيان بعده لم يلتقوا على رأي واحد فمنهم شقي وسعيد ويمثل المولى سبحانه أولئك الأقوام فيجعل العالم المهتدي إلى الصواب هو المبصر والمتبصر ومن ضل عن الحق وأعرض عن الهدى من بعد ما تبين له فهو الأعمى « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟) لاشك أنه لا يمكن بالتسوية بين الأعمى والبصير كما لا يمكن

التسوية بين المهتدى والضال . وعند هذه النقطة من الآيات نكون قد وصلنا إلى أولى الألباب فمن هم أولو الألباب ؟

إن الإنسان إذا كان يبحث عن الإجابة عن هذا السؤال فأولى به بدلا من أن يتعب نفسه أولى به أن يسترسل فى تلاوة الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وحينئذ سيجد الجواب الشافى . والقول الفصل . والقرآن الكريم حينما يشرع فى تعريفنا بأولئكم الأقوام الذين شرفهم وأكرمهم ورفع أقدارهم بجده يعدد لهم كثيراً من الصفات استحقوا بها ذلك الوصف الكريم وأولها :

١ — « يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » :

فما ذلك العهد الذى وفوا به ؟ والذى كانت له السـدارة على سائر نعوتهم ؟

١ — يرى جماعة من العلماء أن المراد بذلك العهد هو ما أخذه الله على بنى آدم فى عالم الذر قبل خلق الأجسام وذلك حينما أخذ الله عليهم العهد والميثاق أن يؤمنوا بألوهيته ويعترفوا بعبوديته كما يشير إلى هذا قوله تعالى فى سورة الأعراف (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى) فكان ذلك الإقرار منهم فى الأزل وهم به مطالبون بتحقيقه بعد وجودهم فمن وفى منهم فقد سار مقتضى هذا الميثاق . دون أن ينسى أو يتناسى هذا العهد .

٢ — ويرى جماعة آخرون أن المراد بعهد الله هنا كل ما عهد الله به إليهم من أوامر ونواهى . فوفاؤهم بالعهد هو قيامهم بما شرع الله لهم فهم لا يتركون مأمورا به ولا يتقحمون منهياً عنه ، ولا مانع من إرادة كلا المعنيين ، والوفاء بالعهد مقصود الشرع حيث حث الله على الوفاء به فى مواضع عديدة فى كتابه ففى صدر سورة المائدة (يأيها الذين آمنوا أوفوا

بالعقود) وفى الإسراء (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) وفى النحل (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) وفى الفتح (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما) . وإذا كان الوفاء بالعهد مطلوبا بتلك الدرجة من الأهمية فإن الجزاء عليه مضمون كذلك حسبما يوحى بذلك قوله تعالى (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) وقوله (ومن أوفى بعهده من الله ؟) وحينما يستمع المؤمن إلى تلك الآيات فإنه لابد أن يجتهد فى المحافظة على الوفاء بالعهد حتى يحصل عظيم الفضل . وتعقب الآية الكريمة بقوله تعالى (ولا ينقضون الميثاق) لتنبه المؤمن على خطأ قد يقع فيه فلربما يظن البعض أن الوفاء مطلوب به الإنسان وخالقه فقط مع أن المطلوب الوفاء من المؤمن مع خالقه ومع الخلائق ومع الخلق بعضهم مع بعض فكل عقد عقدته . وكل عهد التزمت به لأى إنسان كائنا من كان فواجب عليك الوفاء به حتى يكون جديراً أن يكون مع ركب أولى الألباب .

٢ — الوصف الثانى لأولى الألباب (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) ونرى أن ذلك أيضاً من جملة العهد الإلهى على عباده الذين تشرفوا بالإنتساب إليه . ويجدر هنا أن نتعرف على المراد وصله .

(أ) يرى جماعة من المفسرين أن المقصود صلة الأرحام ولهذا الاتجاه مايؤيده من القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ والقرآن يوصى بصلة الرحم والسؤال بحق الرحم فى صدر سورة النساء يقول سبحانه (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) ويقول منبهاً على شناعة قطعها فى سورة محمد (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة مرفوعا إليه ﷺ (خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال : مه ؟ قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك؟ قالت : بلى يارب قال فذاك قال أبو هريرة فاقرءوا إن شئتم (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) وفى الحديث القدسى

(أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته) .

(ب) ويرى آخرون أن المأمور بوصله فى الآية إنما هو الدين والأنبياء وما أتوا به ولهم على ذلك حجج غير خافية من نحو قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ونحو قوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله) .

وقد أوضح الله تعالى مآل كل من الواصلين لدينه والقاطعين له مع وضوح الأمر واستيقانه فقال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا .

والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيما) .

والنبى الخاتم ﷺ يؤكد هذا المعنى أبلغ تأكيد فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريره مرفوعاً (أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات . أمهاتهم شتى ودينهم واحد) ونحوه قوله ﷺ (ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا إتباعى) وهذا الإتجاه يفرض علينا الإيمان بالكتاب كله والاعتراف بنبوة كل الأنبياء لا فرق بين نبى ونبى ، ولئن كانت الشرائع قد اختلفت فى الفروع فجاءت كل شريعة مناسبة لزمانها ومكانها وأقوامها حتى جاءت الرسالة المحمدية رسالة عامة عالمية على امتدادها زمانا ومكانا وعمقا إلى أن تقوم الساعة . لئن كانت الرسالات قد اختلفت فى الفروع كما أسلفنا فإنها قد اتفقت كلها فى الأصول والعقائد . وأمهات الفضائل .

وغنى عن البيان أن النص القرآنى يتسع لما ذكره كلا الفريقين ولا بأس من إرادته منه ، ومن يهد الله فهو المهتدى .

الوصف الثالث والرابع لأولى الألباب :

« يخشون ربهم . ويخافون سوء الحساب » .

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » وأهل الخشية من ربهم تقشعر من كتاب ربهم جلودهم وتلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .

وهؤلاء الذين يخشون ربهم لم يغتروا بصالح أعمالهم فهم فى مقام الخوف الشديد والمراقبة الدائمة ، وهكذا فمن خاف سلم حيث إن خوفه يحمله على تنفيذ أوامر الله الذى يخافه فلا يترك أمراً دون أمر ولا يقترب من منكر . إنه يخشى سوء العاقبة ويخاف أن يجىء اليوم الذى يقف فيه بين يدى ربه فيحاسبه حساباً عسيراً . إذ ربما كانت حسناته لا تفى بشىء من نعم الله تعالى ولربما كانت سيئاته أكبر من أن تعادلها الحسنات وحين ترجح كفة السيئات على الحسنات يكون الويل والثبور . (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهية ؟ نار حامية) أعاذنا الله تعالى من غضبه وعقابه بفضله وكرمه .

ويستوقف المفسر للنص الكريم الجمع بين فعلى الخشية والخوف مضارعين وإن كان مدخل الفعلين واحداً إلا أن الخشية ترتبط بالعلم المحقق لتعظيم الله جل شأنه ولا كذلك الأمر مع سوء الحساب . ولا ريب أن الوصفين بالفعلين المضارعين يفيدان التجدد الاستمرارى تعظيم الله تعالى ومراقبته . ثم الخوف من سوء الحساب ، ومن خاف سلم .

٥ — الوصف الخامس لأولى الألباب :

« والذين صبروا إبتغاء وجه ربهم »

إن أولى الألباب يضمون إلى فضائلهم السابقة فضيلة الصبر وهو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل وما أحال أحدا تمسك بخلق الصبر إلا وسعد وساد وفى الحديث عنه ﷺ (والصبر ضياء) .

فهم كان صبر أولى الألباب ؟ لقد صبروا صبراً عاماً على ماعليه النظم القرآنى الكريم . صـــبروا على الطاعات فقاموا بها فى غير تأفف ولا تضجر فى السراء والضراء فى المنشط والمكره فى السفر والحضر . (كانوا قليلا من الليل مايهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون) ألا ماأعظم أخلاقهم وما أروع معرفتهم بحق سيدهم عليهم ! إنهم يشعرون بعظيم حق الله عليهم ويقرون فى نفس الوقت بضعفهم فلذا يبادرون إلى الاستغفار ويسارعون فى الخيرات .

وهم كذلك صابرون عن المعاصى وهى عندهم سموم مهلكة يرونها يريد الكفر وأولو الألباب يوقنون أن لذة المعصية ساعة تورث حزنا طويلا يستحضرون عقابها الآجل فيكرهون مخالفة ربهم وهم فى ذلك مأجورون برفع الدرجات أو تكفير الخطايا . والصبر عن الخرض فيما يخوض فيه الجاهلون جهد مشكور . والثواب على قدر المشقة ، وهذا هو حكم الله تعالى فى الصابرين (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) وهنـاك آية أخرى يتجلى فيها العطـاء الجزيل بلا حـــدود فى قوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) والحق أن للصبر درجات تتفاوت .

ولقد كان الصبر فى معيار الشرع أحد الصفات الجليلة التى تخرج الإنسان

من الخسران والضياع كما نراه فى سورة العصر المكية (والعصر . إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنـــوا وعملوا الصالحات . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) إن الوصول إلى الحقائق فى حاجة إلى خلق الصبر .

وأولو الألباب وقد حصلوا فضيلة الصبر لم يحصلوها باسم العادة أو المران ولكنهم يصبرون على الطاعات والمعاصى وآلام الحياة ابتغاء وجه ربهم فلم يكن صبرهم رياء ولا سمعة ولا لإظهار البأس والشدة أو لابعاد الملامة عنهم أو للتنافس الدنيوى المجرد .

وهكذا فأولو الألباب هم عباد الرحمن لايرون شيئاً إلاويرون الله قبله

٦ — من صفات أولى الألباب :

« وأقاموا الصلاة »

والحديث عن إقامة الصلاة ومكانتها فى دين الله ماأراه إلا حديثا مكرراً فمن يجهل أهمية الصلاة ؟ أو لايقف على عظيم منزلتها ؟ ألم يعلم أن الصلاة هى أول مايسأل عنه العبد يوم القيامة . فإن صلحت صلح سائر عمله ؟ وألم يسمع جواب الكافرين حين ســئلوا « ماسلككم فى سقر ؟ » قالوا (لم نك من المصلين) ثم أليست هى بعد ذلك الركن الركين من أركان الإسلام الذى لايسقط عن المسلم فى أى حال سواء فى ذلك المرض والسفر والأمن والخوف فى السلم والحرب وبقية الأركان عرضة للسقوط بأسبابها الشرعية وأوامر القرآن الكريم والسنة لا تتطلب من المسلم أداء الصلاة ولكنها تتطلب إقامتها « أقيموا الصلاة » فما معنى إقامتها ؟ إن معنى ذلك أن تأتى مستكملة لكل أركانها وشرائطها وسننها مع تمام الخشوع والاستحضار الروحانى لتحقق لصاحبها كمال الصلة بالله تعالى . والاستعانة به سبحانه على أمور الدين والدنيا :

ومن معانى إقامتها كذلك عدم تضييعها أو الاستهانة بها ولعل فى قوله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) مصداق ذلك .

والصلاة فى المفهوم الإسلامى يتسع لكل أعمال الخير فقد روى ابن خزيمة عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعاً (على كل ميسم من الإنسان صلاة كل يوم فقال رجل من القوم : هذا من أشد ما أوتينا به فقال - ﷺ - (أمرك بالمعـــروف ونهيك عن المنكر صلاة . وحلمك على الضعيف صلاة . وإنحاؤك القذر عن الطريق صلاة . وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة » .

الصلاة فى الإسلام عبادة ذات أخلاق لأن المسلم لا يمكن أن يعيش بغير أخلاق . والصلاة خير مايحقق فينا مكارم الأخلاق . وكيف لا يكون كذلك والصلاة الميراث الأكبر من عباداته ﷺ ؟

٧ — وإذا كان الحديث عن الصلاة وإقامتها من أخلاق أولى الألباب فيثور هنا سؤال ماشأنهم فى الإنفاق الواجب والمندوب ؟ ولذا جاء قوله تعالى :

« وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية »

وهكذا نرى فى القرآن الكريم اقتران الزكاة بالصلاة حتى فى السور المكية . وذلك من تحقيق أخلاقيات الصلاة على نحو ما أشرنا اليه قريبا . وبذلك يجمع الله تعالى لأولى الألباب بين العبادة البدنية والمالية . ولنتأمل قليلا لنرى فضل الله عليهم فالله تعالى هو الرازق . والمال مال الله . وهم حينما ينفقون فلا يأتون بشىء من عندهم إذهم مستخلفون فيه ومع ذلك لا ينفقونه كله حتى يكون ذلك شرطا لثوابهم . بل إنه سبحانه يكتفى منهم ببعض هذا المال الذى يدل عليه النص الكريم (مما رزقناهم) ذلك عطاء ربك (وما كان عطاء ربك محظورا)

وبعد ذلك نجد الآية تنوع أحوال الإنفاق فتجعله سراً مرة وعلانية أخرى . كيف يكون ذلك ؟ ومتى يكون ؟

إن كل شيء يوضع فى مكانه فمن خشى الرياء والعجب أو ايذاء من يستحى من الفقراء كان السر هو الأنسب له ، ومن لم يخش شيئا من ذلك فله الإعلان عسى أن يكون منه قدوة لغيره .

٨ — وآخر الأوصاف لأولى الألباب بسياق سورة الرعد قوله تعالى (ويدرءون بالحسنة السيئة)

وأولو الألباب يعيشون فى المجتمع وقد يخاطبهم الجاهلون ، وخاصيته عباد الرحمن كما وصفهم ربهم (قالوا سلاما) لايجهلون مع الجاهلين فهم ذوى عقل وحلم لايطيش يدعون إلى طريق الله تعالى بحسن أخلاقهم

هؤلاء لايقابلون الإساءة بمثلها بل يقابلونها بالإحسان فهم يصلون من قطعهم ، ويعفون عمن ظلمهم ويعطون من حرمهم يعرفون من كتاب ربهم أنه (لا تستوى الحسنة ولا السيئة ، وينفذون ما أمرهم به ربهم (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) (خذ العفو . وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ،

وقد يكون للآية معنى آخر : هو أنهم يسارعون إلى الحسنة إذا بدرت منهم سيئة لتكون علاجا لسوء ماوقع مصداق ذلك قوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقوله ﷺ (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) وبمجموع هذه الأوصاف العليا لأولى الألباب عباد الرحمن يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان فيقول فى حسن جزائهم (أولئك لهم عقبى الدار) جنات عدن يدخلونها ويسبغ الله عليهم من واسع فضله فيلحق بهم من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئا بهذا الإلحاق وبذلك تتم سعادتهم . وتكمل فرحتهم ويكون من ثوابهم جمعهم مع أحبابهم

من المؤمنين وإن قصر هؤلاء فى بعض الصالحات تكريما للمقربين وذلك مشروط بصلاح التابع وإن كان أقل من المتبوع ويؤيد ذلك قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم)

هذا وقد اكتفى فى سورة الرعد بذكر فضائل أولى الألباب فى ميدان الأعمال الصالحة ولم تتعرض للمنهيات على نحو ماسلكته سورة الفرقان المكية حيث جمعت بين بعض المأمورات وأمهات الرذائل ، ليعلم يقينا أن أولى الألباب لايدور بخلدهم شىء مما نهى عنه إذ هم يستبقون إلى الخيرات فما شأنهم وعبادة غير الله والقتل ، والزنا وشهادة الزور هذه أمور لاترد بخاطرهم وهم تجنبوها لأنها تتنافى مع منزلتهم الكريمة من ربهم .

اللهم ألحقنا بالصالحين ، وأدخلنا برحمتك فى عبادك المقربين ؟

العيد

سئل أحد الصالحين متى عيدكم ؟ فقال :

١ — يوم لا نعصى الله فذلك عيدنا .

٢ — يوم يتحقق نصر الله للمؤمنين فهذا عيدنا .

٣ — يوم نعود إلى رحاب الله فنصلح من شأننا فهو عيدنا .

٤ — وليس العيد لمن لبس الملابس الفاخرة إنما العيد لمن أمن عذاب الآخرة .